جيـــل وجيل
الحيوية الفـكرية
للأستاذ محمود البشبيشى

تعدد المواهب والحيوية — الحيوية تحدد الاتجاه — جناية الحيوية على أربابها — إسحاق الموصلى — الحيوية الفكرية تسبق الزمن وتقرر المستقبل — الشاعر البدوى عبد المطلب والرواية الشعرية تبعث إلى التأمل فى أحوال المجتمع — حيوية الفكرة الدينية — حيوية الفكرة فى الفنون

نصل حوارنا اليوم فى حيوية الفكرة ليكمل البحث ، ويتم الغرض ، ويستقيم المعنى ، ويدرك الهدف . فليس أقبح من أن يعجل المرء بالحكم قبل استيفاء الحجة ، ويبرم القضاء قبل امتحان الشهادة . وإن الاقتضاب فى معالجة الأمور مدرجة الضلالة ، والإسراع فى الكشف عن منبهم الأسرار طريق الغاية ... وخير الباحثين من نهج سبيل التأنى والاستقراء ليعقل ويفهم ويدرك تفاصيل ما يعالجه ، وتراكيب ما يعرض له ...

... قال ولدنا حسين : عرفنا من أسرار الحيوية الفكرية شيئاً وبقيت أشياء . فقد تتعدد المواهب وتكثر الاتجاهات للشخصية الواحدة ؛ كأن يكون المرء شاعراً ضرب فى الشاعرية بسهم وافر ، وناثراً طلع فى القدرة على بيان أفكاره مطالع عالية ، وخطيباً بلغ من عبقرية الفصاحة الغاية التى تتقطع دونها الأعناق... ويكون له فى كل مذهب من هذه المذاهب المتعددة المتباينة جودة واستواء ، وموافقة وكمال ، ورونق وعذوبة ، واستيعاب وفهم .

فما مكان الحيوية هنا ؟ وهل تكون فى كل ناحية على قدر معلوم ؟ وهل لصاحبها القدرة على توجيهها والسيطرة عليها أو يكون موقفه منها موقف الأرض من الغيث . . . لا تستطيع إلا أن تنتظر وروده !

قلت : أما تعدد المواهب يا بنى فأمر قد يكون إلى الفطرة أقرب منه إلى الاعتياد والدربة . على أن المواهب مهما تعددت ألوانها ، وتشعبت مذاهبها ، لا يمكن أن تكون فى كل ناحية ومذهب على نسق واحد من القدرة ، وفى قوة واحدة من الحيوية ... ولا بد يا بنى من تدفق الحيوية قوية عاتية فى ناحية دون أخرى ، وحينئذ يكون لها وحدها تقدير المصير ، وتحديد الشخصية ، وبيان موضع صاحبها وفنه الأصيل فى معترك الحياة الصاخبة الدوّارة . فأنت يا بنى تدهش من تعدد مواهبك ، وتعجب من تباينها ، وتحار فى تعليل ميلك إليها ، وتوفرك على أسبابها ؛ ولكن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من التأمل فى منابت هذه الاتجاهات وأصولها ، فأنت تميل إلى الرسم وتمارسه ، وتجيد الشعر وتطرب له ، وتندفع وراء العمق فى الفكرة جرياً وراء الفلسفة وطلباً لمنبهم الأسرار ... وكل أولئك لو تأملت يا بنى من مصدر ومبعث واحد يرجع إلى حساسية الشعور ، وشفافية الوجدان ، ويقظة التفكير . على أنك لو تأملت طويلاً لرأيت أن هناك حيوية خاصة غالبة على كل هذه الاتجاهات ... تلك هى عمق الفكرة والجنوح إلى التأمل العميق . وإنك لتجد لصدق هذا القول صوراً من الشخصيات فى مطاوى الزمن . فقد كان إسحاق الموصلى متعدد المواهب بعيد مدى الآمال ، متباين الميول . وكان إذا ناظر أهل الكلام انتصف منهم ، وإذا تكلم أو عالج الفقه أحسن وقاس واحتج وبلغ فى قياسه واحتجاجه الغاية . وإذا أخذ بأسباب الشعر واللغة فاق وارتفع ، ولكنه كان فى الغناء أكثر حيوية ، وكان الغناء أدنى ما يوصف به وإن كان الغالب عليه . على أنه كان أكره الناس للاشتهار بالغناء والتسمى به !

قال : إن فى نفور إسحاق يا والدى من الغناء وهو ما اشتهر به وذهب له به صيت ذكر ، لطرافة وموضعاً للتأمل

فإن للحيوية جناية كبرى على أربابها . ولقد أصاب إسحاق من الحيوية ألم عظيم وضياع للفرص السوانح ؛ فقد كان المأمون يقول : لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس ، وشُهر به من الغناء عندهم لوليته القضاء ، فإنه أولى به ، وأحق وأعف ، وأصدق تديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ...! فما أشد ألم إسحاق لضياع ما كان يتطلع إليه ! وما أخطر جناية الحيوية على أربابها ! ولعل الهدف الأول لجناية الحيوية هو صاحب الفكر الحر من أنصار العقيدة ، وأرباب المذاهب الفكرية . فكم من رجل حر العقيدة ، صادق الإيمان ، دفعت به حيوية الفكرة التى يعتنقها ، ويتمسك بأسبابها ، ويناضل فى سبيلها إلى الخوض فى مرابط

الملكة ... لا تمنعه رهبة ، ولا تقطعه هيبة ، ولا يدركه نصب ، ولا يتداخل جهاده تردد ، فإذا رأيت في حياتك رجلاً قد طوقته الشروز ، وترامت عليه النقم ، وأقصى عن مواطن النعم ، وحرم كل ما هو في متناول غيره ، فلا تتردد في أن تنسبه إلى رجلين : رجل انسلخت حقيقته من معاني الإنسانية ، فهو شر على نفسه وشر على غيره ؛ ورجل ارتفعت حقيقته بمعاني الإنسانية إلى مرتبة عالية سامية ترقب العالم بعين الضمير الحي الذي لا يقيم وزناً للمظاهر الكواذب ، ولا يحفل بالقوة إذا لم تقم على قواعد من الحق ، وأسس من العدل . . فهو بما طبعت عليه نفسه من حيوية الفكرة والعقيدة والحق عدو الباطل والقوة ، وطريد الرياء والقسوة

قلت : وإن الحيوية يا بني لتقرر المصير ، وتحدد الغاية ، وتشير إلى مستقبل صاحبها من قبل أن يتأهب لغايته من الحياة وينتظرها ، ومن قبل أن تستقر به الأيام ، وتطمئن به الأسباب ، وتصبح له يد باسطة في الناحية الأصيلة من مواهبه واتجاهات شخصيته . فإنك لتلمح في طفولة الفنان العبقري بوارق من حيوية الفن والفكرة فيما يعرض له في سلوكه وأحواله ورغباته وآماله . فهو أبداً يميل إلى كل فاتن من الصور ورائع من الألوان ، ويجد في الخيال المجنح نشوة تخف على قلبه ، وتتصل بروحه الفنية ، وتقربه من غايته التي لم تزل في أكمام الغيب تناديه من وراء حجاب ؛ ويجد لها في قرارة نفسه حنيناً لا يملك القدرة على بيان خصائصه في جلاء ووضوح ، وإشراق وصفاء . ولكنه على رغم هذا يحس بدافع يسوقه إلى السير وراء كل ما هو أدنى بالقبول ، وأحظى بطلاوة الفن ، وأعلق بقلب الفنان ... على أن صاحب الحيوية قد يدرك الغاية التي يسعى لها ، وتدفعه حيويته إليها ، وهو حينئذ يقصد أنبل المقاصد ولا يرهب أخطر المهالك ، ويجد في نفسه الإيحاء الذي يقول في قوة وحيوية : هذا أمل واجب أن يكمل ، وحقيق أن يوفى حقه ، وليس يتحقق أبداً إلا بأن يتطلع المرء إلى أجل الأغراض مكاناً . والرجل الحي من كان في قوله وفعله كأنما اطلع على إرادة قومه وإرادة حيويته ، فرمى عن قوس عقيدتهم وعقيدته

فقال : إذن فالحيوية الفكرية يا والدي تسبق الزمن ، فتحقق في التخيل والتصور ما يتمخض عنه الزمن بعد أجيال متعاقبة . فكم من مخترعات تفتقت عنها زماننا وكانت في ألفاف الخيال سجينة من أزمان طويلة . فقد جالت فكرة الطيران بخلد الإنسان منذ تنفس فجر الفكرة الحية في الإنسانية . وكم من أفكار كانت فطرية ساذجة ثم أصبحت مع الزمن فنوناً من النظريات والعمليات الخالدة . . . أجل هذا حق لا يتداخله شك ، ولا يشوبه إفراط . ومن طرائف هذه الحيوية التي تسبق الزمن ما عرض لي في أثناء مطالعاتي يا والدي . . . فقد رأيت أن الشاعر البدوي الجليل « عبد المطلب » كان قد عالج الرواية الشعرية علاجاً استكمل شرائط الفن ، واستوفى أوصاف الحيوية التي طالعتنا من فنون أمير الشعراء ... فقد ألف عبد المطلب عدة روايات شعرية تمثيلية . وكان هذا منذ (٢٩ عاماً) فعبد المطلب بذلك يتفرد وحده بفضل السبق في هذه الناحية الخطيرة من الفن الأدبي . فقد افترع هذا اللون من الشعر الروائي افتراعاً قبل أن تتفتح عنه عبقرية أمير الشعراء . ولا نسوق هذا القول من غير دليل ينهض شاهداً على صدقه ؛ فإن للشاعر (البدوي) عدة روايات تمثيلية يوجد بدار الكتب منها روايتا «امرئ القيس» و « المهلهل » : وقد قام — رحمه الله — بتأليف رواية اسمها « ليلى العفيفة » نشرت مجلة (المعرفة) جزءاً منها دليلاً على سبقه في هذا الفن . والتأمل في هذه الرواية يرى كيف استطاع الشاعر أن يقنعنا بأنه كان مطبوعاً ، حسن التصرف قد أغناه عفو قريحته عن التكلف ، وبعد به عن التصنع ... هذه بعض آثار الحيوية الفكرية يا والدي ، وإنها لتدفع الناس إلى التأمل في حالهم ، وربط ماضيهم بحاضرهم ، والتطلع إلى مستقبلهم ؛ وهذا التأمل والربط والتطلع ، يجيء من بعده الرغبة في التقدم ، والمطالبة بالحرية ، والسعي وراء المجد . ويظهر هذا الأثر الأخير في حيوية الفكرة الدينية ، وخاصة في حيوية الفكرة في الدين الإسلامي المجيد ، فقد كانت الحقيقة المؤمنة تتطلق عزمة ، وتتوهج رغبة ... تنظر إلى أحابيل الشيطان نظرة القدرة القادرة ، وتتأمل أضاليل الباطل بثقة الحكمة النافذة ، فكان لها النصر المبين . بعثت حيوية الرسول في قلوب المؤمنين القوة التي قهرت الباطل ، وبددت سحب الشيطان ، وأقامت على أطلال الشرور والرياء والنفاق والفرقة والضلال مجداً عظيماً : قوياً بالإيمان ، ثابتاً بالعقيدة ،